أثر الإيمان في إيقاظ الرحمة في النفس الإنسانية وتوجيهها "من خلال رسائل النور"

د. عدنان مصطفى خطاطبة(*)

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فشكر الله للقائمين على عقد هذا المؤتمر العلمي من أجل مدارسة علمية هادفة وجادة لفكر علم من أعلام الأمة وروادها المصلحين؛ الإمام المجدد بديع الزمان النورسي، وذلك من خلال رسائله النورانية التي تجاوزت بأفكارها حدود الزمان والمكان، وشكلت منعطفا حضاريا هاما في معالجاتها الشمولية لمفاهيم هذا الدين العظيم، وفي تقديمها مشاريع إصلاحية رائدة لا يستغني عنها المصلحون ولا يتجاوزها المفكرون والدعاة العاملون والتربويون المبدعون. وهذه الرسائل النورانية ما زالت تحتاج إلى مدارسات معمقة ومتتابعة ومن جوانب متعددة لكشف المزيد من دررها الكامن لعلها ترشدنا في محاولاتنا لاستئناف حياتنا الإسلامية وممارستها بصورة إيجابية في ظل الواقع المعاصر. ومن هذا المنطلق جاءت دراستي للسفر النوراني في سبيل تحقيق مثل هذه الفائدة ومن خلال المشاركة بمؤتمر"العلم والإيمان والأخلاق لأجل مستقبل أفضل للإنسانية، مقاربة رسائل النور" وفي محور من محاوره المخصصة: "دور الإيمان ومساهمته في إيقاظ الشعور بالشفقة والرحمة." وبورقة بحثية عنوانها: "أثر الإيمان في إيقاظ الرحمة في النفس الإنسانية وتوجيهها- من خلال رسائل النور".

(*) قسم الدراسات الإسلامية/ كلية الشريعة/ جامعة اليرموك / إربد/ الأردن. adn_mus@yahoo.com

ولقد وجد الباحث بعد طول نظر وتأمّل في رسائل النور تَرَكَّزَ على ملاحظة محور البحث المخصص أنّ هذا الموضوع على قدر كبير من الأهمية في كتابات النورسي الإيمانية والدعوية والتربوية، وأنّ هناك أفكارا نظرية ومعالجات عملية تسبك بإحكام محاور الصلة بين الإيمان والرحمة بما يخدم الحياة الإنسانية على الصعيدين الفردي والمجتمعي، وينقذها من رياح القسوة وشقاوة الوحدة ونزعة المادية، حيث تشكلت الرؤية البحثية - من خلال رسائل النور- في معالجة موضوع الدراسة وفكرتها بالمحاور الآتية:

أولاً: رسائل النور والتأسيس للرحمة الإنسانية.

ثانياً: تجلّيات الرحمة الإلهية في عالم الإنسان والكون عند النورسي.

ثالثاً: عقيدة الآخرة وإنقاذ الرحمة الإنسانية عند النورسي.

رابعاً: التوحيد وتوجيه الرحمة الإنسانية عند النورسي.

خامساً: التربية الإيمانية ومظاهر الرحمة الإنسانية عند النورسي.

وجميع هذه المحاور سيتم تناولها من خلال رسائل النور وضمن المحور المخصص لها وفي إطار عنوان المؤتمر العام، وبالأخذ بأصول البحث العلمي، بحيث تحقق هذه الورقة البحثية الفوائد المرجوة منها بالتكامل مع بقية الأوراق البحثية المقدمة إن شاء الله تعالى. والله ولي التوفيق

أولاً: رسائل النور والتأسيس للرحمة الإنسانية:

تأخذ الفكرة لدى صاحبها أصالة وتحظى بمصداقية حينما تشكل لديه نقطة ارتكاز قوّية وجليّة تتبّدى معالمها في الأطر الأساسية والمضامين الجوهرية لأفكاره ولموضوعاته التي يطرحها، وفي موضوع هذه الدراسة فإن الباحث ليؤكد وجود مثل هذا المسار عند النورسي، حيث تبدو الرحمة الإنسانية بدوافعها الإيمانية العميقة تمثل قضيّة ذات بال في رسائل النور، فلم تكن معالجتها ثانوية ولا عرضية، بل أساسية وجوهرية ومقصودة لذاتها وهو ما يعطيها أهمية وجدارة بالبحث والكشف عن مكنونها، يقول النورسي: "إن الشفقة هي أهم أساس في مسلكي ومشربي في الحياة، وإن الرأفة والرحمة التي هي حقيقة عظمى أيضاً من حقائق رسائل النور"[1] وكلامه هذه يشير إلى تأسيس واضح للرحمة الإنسانية من خلال أمرين واقعين: الأول: معايشة النورسي نفسه

(١) النورسي، اللمعات، ص٣٠٩.

للرحمة، واتصافه بها، وجعلها مسلكاً أساسياً في حياته، ويظهر تطبيق ذلك جلياً حينما تجده "في سبيل إزالة الخلاف يوصي بنشر المحبة بين المؤمنين وإزالة العداء، فهو يقول: نحن فدائيو المحبة لا وقت لدينا للخصومة. وقد أعلن أنه عفا عن جميع الذين عذبوه طوال حياته، وملأوا حياته ألماً وضيقاً"[١] ،بل ويدعو تلاميذه " إلى الصفح عمن أساء إليهم، وألا يحملوا روح الانتقام منهم ولو بمقدار ذرة"[٢]. وأما الأمر الثاني فهو ما حملته رسائله من تأسيسات واضحة للرحمة الإنسانية المبنية على الإيمان، فهي بحق رسائل الرحمة، يقول النورسي: "إن منهج رسائل النور الذي هو عبارة عن: الشفقة والعدل والحقيقة والضمير..."[٣]، ويقول في موضع آخر: " لأن مسلك رسائل النور قد أسس على الإخلاص التام وترك الأنانية واستشعار الرحمة الإلهية"[٤]، ويجعل النورسي الرحمة والشفقة من الأسس الثابتة التي لا بد من تطبيقها لإنقاذ البلاد والحياة الاجتماعية[٥]. ويقول في ذلك: " إن رسائل النور هي أقوى وسيلة وأنجح دواء لهذه الأمة في سبيل إعادة الأخوة الإسلامية والمحبة وحسن الظن والتعاون"[٦] فمن "أهم غايات ومقاصد رسائل النور العمل على توحيد كلمة المؤمنين، ولمّ شملهم لخدمة هدف واحد مؤدّاه خدمة الإيمان نفسه، وطريقة التأسيس العملي للوحدة الشعورية بين المؤمنين أنفسهم"[٧]. ولا شك أن هذا من أقوى مظاهر الرحمة الإنسانية المنية على الإيمان. والمقصود مما تقدم التأكيد على أنّ الرحمة مؤسس لها ومقعّد في رسائل النور، وفي حياة صاحبها.

ويظهر تأسيس رسائل النور للرحمة الإنسانية كذلك من كونها تؤسّس للإيمان والذي يشكل المنطلق الأوّل لهذه الرحمة، فمتى استقرّ الإيمان جاءت الرحمة على إثره قوّية راسخة، يقول النورسي: " غايتي إصلاح الأسس التي يبنى عليها الإيمان، فإذا

---

(١) مؤتمر عام ١٩٩٢، سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، استانبول، ص٧٧.

(٢) العوضي، بديع الزمان النورسي: فكره ودعوته، ص١٥٧.

(٣) النورسي، الشعاعات، ص٤٠٦.

(٤) المرجع السابق، ص٢٧٢.

(٥) المرجع السابق، ٤٠٦.

(٦) المرجع السابق، ص٢٧٣.

(٧) جيدل، عمار، حقيقة مقاصد رسائل النور، ص٢٢٤.

أصبح الأساس صلباً قوياً فلا يؤثر فيه مؤثر بعد"[١] وهذا كله يفيض عنده من القرآن[٢]، والذي من مقاصده التوحيد والرسالة والحشر والعدالة مع العبودية[٣]، وبالإيمان المُنطِلق من القرآن تحصل الرحمة والمحبة[٤]، وسائر الأخلاق، ويزول الانفصال النكد بين الأخلاق والإيمان[٥]. وتؤسّس رسائل النور للرحمة الإنسانية المبنية على الإيمان كذلك، من خلال تأكيدها على كون القرآن الكريم نفسه كتاب رحمة وهداية[٦]، وعلى كون الرسول صلى الله عليه وسلم هو نفسه رحمة مهداة للعالمين[٧]. يقول النورسي: "الحمد لله رب العالمين على رحمته على العالمين التي هي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم"[٨] وبذلك يظهر لنا أن عناية رسائل النور بالرحمة الإنسانية عناية مقصودة ورئيسة منطلقها مقاصد القرآن والإيمان والرسالة النبوية.

ثانياً: تجلّيات الرحمة الإلهية في عالم الإنسان والكون عند النورسي

يضع النورسي من خلال رسائله كل حلقة من حلقات أفكاره في موضعها الصحيح وفي محورها السليم من ذلك الدولاب الكبير الذي تدور ضمن رحاه، ليعطي بذلك الفكرة المثارة والموضوع المطروح قوته وجاذبيته ومصداقيته بحيث يرى متصلاً بجذوره ومتفرعاً عن سيقانه. وفي موضوع هذه الدراسة، فإنّ الأمر كذلك يبدو مشهده في رسائل النور، إذ ينظر إلى الرحمة الإنسانية على أنها تجليّاً من تجليات الرحمة الإلهية ومظهراً من مظاهر عقيدة الوحدانية، ومشتركاً من مشتركات الحياة الكونية. هذا هو منزع الرحمة المؤسّسة على الإيمان عند النورسي. فالله عز وجل اسمه الرحمن[٩]،

---

(١) النورسي، سيرة ذاتية، ص٥٢٤، والعوضي، النورسي: فكرة ودعوته، ص٣٤.

(٢) جيدل، عمار، حقيقة مقاصد رسائل النور، ص٢٢٢.

(٣) النورسي، المثنوي العربي، ص٧٥.

(٤) المرجع السابق، ص١٣٥،وجيدل، عمار، حقيقة مقاصد رسائل النور، ص٢١٤.

(٥) جيدل، عمار، حقيقة مقاصد رسائل النور، ص٢٢٣.

(٦) النورسي، المكتوبات، ص٢٦٧، والكلمات، ص٥٠٧.

(٧) النورسي، المثنوي العربي،ص١٣٥، واللمعات، ص١١٠،٢٩،٢٨ .

(٨) النورسي، المثنوي العربي، ص١٣٥.

(٩) النورسي، اللمعات، ص١٤٦.

واسمه الرحيم[١]، وله رحمة وسعت كل شيء[٢]، وتحيط بالدنيا والآخرة معاً[٣]، ولهذه الرحمة تجلياته على عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات وسائر الكائنات[٤]، يقول النورسي: " إنّ الرحمة الإلهية هي التي أبهجت الكائنات التي لا يحدها حدود، إنّ الرحمة نفسها هي التي أنارت هذه الموجودات المغشية بالظلمات، وإنّ الرحمة أيضاً هي التي رتّب في أحضانها هذه المخلوقات المتقلبة في حاجات لاحدّ لها، وإنّ الرحمة هي التي وجهّت الكائنات من كلّ صوب وحدب وساقتها نحو الإنسان، وإنّ الرحمة نفسها هي التي جعلت هذا الإنسان الفاني مرشحاً للخلود والبقاء"[٥]، ويقول كذلك فيما يخص الرحمة الوالدية: "إنّ لصاحب هذا العالم رحمة وسعت كل شيء، ومن لطائف تلك الرحمة شفقة الوالدات مطلقاً، حتى النباتات على أولادها، وسهولة أرزاق أطفال الحيوانات وضعفائها"[٦].

ويقدّم النورسي واقعاً تلامس فيه الرحمة الإلهية حياة الإنسان وتحيط به من حوله وتزرع في نفسه الرحمة ذاتها. ويضرب لذلك مثلاً في تسخير الأرض، فيقول: " إنّ هناك واحداً جعل لنا الأرض - كما هي ظاهرة أمام أعيننا- مضيفاً رائعاً، وغمر وجهها بآلاف هدايا الرحمة، وفرش لنا بتلك الرحمة مأدبة تحوي مئات الآلاف من مختلف الأطعمة، وجعل لنا جوف الأرض - برحمته وحكمته - مخزناً عظيماً جامعاً لآلاف إحسانه وآلائه القيمة، ويقوم بتربيتنا تربية في منتهى الرحمة، بتحميله الأرض بمئات الآلاف من أجود أنواع صنوف اللوازم الحياتية للإنسان وأجملها..."[٧]. ويضرب كذلك مثلاً بالتعاون بين الأشياء باعتبار ذلك من الرحمة، فيقول: "إنّ حقيقة التعاون تشاهد فيما هو خارج عن طوق المخلوقات الساعية لحفظ وجودها ومهامها وصيانة حياتها. فمثلاً إنّ سعي العناصر لإمداد الأحياء، وبخاصة مدّ السحاب للنباتات، ومساعدة

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) النورسي، المثنوي العربي، ص٩١، والشعاعات، ص١٨٥.

(٣) النورسي، الشعاعات ، ص٢١٥.

(٤) النورسي، اللمعات، ص١٤٦.

(٥) المرجع السابق، ص ١٤٨.

(٦) النورسي، المثنوي العربي، ص٩١.

(٧) النورسي، الشعاعات، ص٢١٤.

النباتات بدورها للحيوان، ومعاونة الحيوان للإنسان...، وما شابهها من الأمثلة الغريزة لحقيقة التعاون الجارية بالتسخير الرباني وبالاستخدام الرحماني، تظهر بجلاء ربوبية رب العالمين العامة المحيطة، ورحيميته الواسعة الشاملة"[١]. ويدعو النورسي إلى أن تكون مظاهر هذه الرحمة الإلهية وتجلياتها في عالم الإنسان طريقاً لتمكنّ الرحمة من نفس هذا الإنسان " يتوجه بها إلى الكائنات كافة وينسج علاقات وروابط معها "[٢] مبنية على أساس من الرحمة والشفقة التي مبعثها الإيمان ومنبتها تجليات الرحمن.

ثالثاً: عقيدة الآخرة وإنقاذ الرحمة الإنسانية عند النورسي.

تشكل عقيدة الآخرة في رسائل النور مرجعية أساسية وقاعدة ارتكاز ومنطلقاً رئيساً وثابتاً من ثوابتها تنبث من خلالها جمل كثيرة وفيوضات متنوعة وترجع إليها وتؤول حزم عديدة من المعالجات والمحاكمات لأفكار وأحوال وواقعات تضج بها حياة الناس. هذا ما لمسه الباحث في رسائل النور بمختلف مقاماتها ووقفاتها، ويأتي هذا انسجاماً تاماً مع مقاصد رسائل النور المبنية على مقاصد القرآن والساعية إلى تحقيق هذه المقاصد (القرآنية) وإعمالها وإحيائها في حياة الناس مؤسّسةً على قاعدة الإيمان التي أخذت الرسائل على عاتقها إنقاذه وإعادة روحه إلى أرواح الناس.

والحقيقة، إنّ احتفاء رسائل النور بعقيدة الآخرة وإعطائها أهمية قصوى - وهي ركن ركين من أركان الإيمان- يمثل وعياً صحيحاً ونظراً ثاقباً إلى مسالك خطاب الوحي الذي اعتمد بشكل أساسي على التذكير الدائم بالآخرة – ترغيباً وترهيباً- في سبيل تصحيح السلوك الإنساني وردّه إلى جادّة الصواب وتقريبه من فطرته القويمة. ومن هنا اتخذت رسائل النور الآخرة مرتكزاً أساسياً في خطابها الديني في سبيل تحقيق معالجات نفسية واجتماعية وحياتية لواقع الإنسان المسلم لتعيد إليه الرحمة الإنسانية الصادقة التي من خلالها يعيش مع الآخرين بسلام وطمأنينة. وانظر إلى النورسي وهو يؤسس لعقيدة الآخرة كضرورة حياتيه بقوله: "إنّ عقيدة الآخرة هي أس الأساس لحياة الإنسان الاجتماعية والفردية، وأساس جميع كمالاته ومثله وسعادته"[٣]. ويأتي التوظيف العملي لهذه الفكرة الأصيلة، والتفاصيل الواقعي لهذا التأسيس العام في مواضع عديدة

(١) المرجع السابق، ص١٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢١٥.

(٣) النورسي، الشعاعات، ص٢٢٩، والكلمات، ص١٠١.

من رسائل النور، ومن زوايا مختلفة وجوانب متنوعة يظهر النورسي من خلالها كيف أنّ "الآخرة" تشكل منفذاً أساسياً لاختناقات إنسانية وحضارية ومجتمعية كثيرة. وجوهر هذا التوظيف يظهر كما بدا الباحث من خلال تركيز النورسي على كون عقيدة الآخرة تُوسّع الحدود الضيّقة وتمدّد المجالات المختنقة، وإذا بالإنسان يرى ما لم يكن يراه ويرحم ما لم يكن يرحمه وتفيض نفسه بما كانت تشع به، يقول النورسي حول ذلك: " ما إن يأتي "الإيمان بالآخرة" إلى هذا الإنسان لينقذه ويمدّه ويغيثه، حتى يحول ذلك الزمن الضيق – الشبيه بالقبر- إلى زمان فسيح واسع جداً بحيث يستوعب الماضي والمستقبل معاً، فيريه وجوداً واسعاً بسعة الدنيا، بل بسعة تمتد من الأزل إلى الأبد"[١]، ثم يأتي النورسي على شيء من الرحمة الإنسانية ومظاهرها التي يقتضيها هذا الاعتقاد بالآخرة ويبثها في النفوس، فيقول: "وعندئذ يقوم هذا الإنسان باحترام والده وتوقيره بمقتضى الأبوة الممتدة إلى دار السعادة وعالم الأرواح، ويساعد أخاه ويعاونه – بذلك التفكير- بالأخوة الممتدة إلى الأبد، ويحب زوجته ويرفق بها ويعاونها لأنها أجمل رفيقة حياة له حتى في الجنة"[٢]، وهذا كله من تجليات الرحمة الإنسانية حينما يستشعر صاحبها الإيمان بالآخرة.

ويؤكّد النورسي في رسائله النورانية أنه إذا لم يتمّ إنقاذ الرحمة الإنسانية عن طريق الإيمان بالآخرة، واختفت هذه العقيدة الأساسية من حياة المجتمعات، فإنّ مظاهر الرحمة الحقيقية ستصبح عملة نادرة وسيحلّ مكانها كلّ أشكال القسوة والغلظة، يقول النورسي حول ذلك: "وهكذا فإن كل "مدينة" هي بحد ذاتها بيت واسع لسكنتها، فإن لم يكن "الإيمان بالآخرة" مسيطراً على أفراد هذه العائلة الكبيرة فسيستولي عليهم الحقد والمنافع الشخصية والاحتيال والأنانية والتكلف والرياء والرشوة والخداع، بدلاً من أسس الأخلاق الحميدة التي هي الإخلاص والمروءة والفضيلة والمحبة والتضحية"[٣]، ولكن بالمقابل إذا ما جاء الإيمان بالآخرة لينفذ الحياة والرحمة فيها، فإن الأمر سيتغير كثيراً وستبدو أنواره ساطعة، يقول النورسي: " فإذا ما حكم "الإيمان بالآخرة" هذه البيوت وسيطر فإنّ الفضائل تتكشف، وتنبسط، وتتوضح فيها، فتظهر الاحترام المتبادل، والرحمة الجادة، والمحبة الخالصة بلا عوض، والمعاونة مع الخدمة الحقّة بلا احتيال،

(١) النورسي، الشعاعات، ص٢٧٩.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع السابق، ص٢٨٣.

والمعاشرة والإحسان بلا رياء، والفضيلة والتوقير بلا استكبار، وتشيع الفضائل الأخرى جميعاً"[١]، وتفصّل رسائل النور بشكل إيجابي ورائع ونافع لكيفية التغيير الرحيم الذي تحدثه الآخرة حينما تدخل إلى حياة الإنسان: طفلاً، وشيخاً، وشاباً، وعائلة، ومجتمعاً ودولة[٢] - كما سبق، حيث يحوّل الإيمان بالآخرة مضائق الحياة وسراديب منعطفاتها التي تخنق النفس وتنزلق بالسلوك وتشتت الفكر، إلى حياة رحيمة ونفسية مطمئنة وسلوكات خيّرة، ويكفي أن يأتي الباحث على مقام العائلة من ذلك، حيث يقول النورسي: "إنّ الحياة العائلية هي مركز تجمّع الحياة الدنيوية ولولبها، وهي جنة سعادتها وقلعتها الحصينة وملجأها الأمين، وإنّ بيت كل فرد هو عالمه ودنياه الخاصة، فلا سعادة لروح الحياة العائلية إلا بالاحترام المتبادل الجاد، والوفاء الخالص بين الجميع، والرأفة الصادقة، والرحمة التي تصل إلى حد التضحية والإيثار، ولا يحصل هذا الاحترام الخالص، والرحمة المتبادلة الوفيّة إلا بالإيمان بوجود علاقات صداقة أبدية، ورفقة دائمة، ومعيّة سرمدية، في زمن لا نهاية له، وتحت ظل حياة لا حدود لها"[٣]، وهذا ما تحدثه عقيدة الآخرة والإيمان والتصديق بها، وهي بذلك تعمل كمنقذ للرحمة الإنسانية ومظاهرها وتجلياتها في الحياة، حيث تصبح حياتنا النفسية والعائلية والمجتمعية والدولية مصبوغة بصبغة الرحمة والرأفة والإحسان الذي يسودها بحب ووفاء وجدّية وصدق بعيداً عن كل الحسابات العاجلة والمنافع الزائلة، لأنّ البقاء السرمدي والعَوْد الأبدي الذي تصنعه لنا الآخرة يجعلنا نتجاوز حدود هذه الحياة الضيقة، وعلاقاتها المشددة، وقسوتها الجافّة، إلى رحاب الرحمة الإلهية في الدنيا وفي الآخرة التي تفيض على قلب الإنسان رحمة نزيهة ورأفة صادقة، بها ينظر إلى الآخرين وعلى أساسها يعاشرهم ويعاملهم.

رابعاً: التوحيد وتوجيه الرحمة الإنسانية عند النورسي.

احتلت عقيدة التوحيد ومعرفة الله تبارك وتعالى ووحدانيته مساحة كبيرة في رسائل النورسي، ولقيت اهتماماً كبيراً عند مؤلفها في جميع كتبه القديم منها والجديد[٤]. وهذا

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) النورسي، الكلمات، ص١٠٢-١٠٣ .

(٤) عبد الرحمن، رائد سعيد،الفكر العقدي عند الإمام النورسي، ص٦٦

توجه طبيعي بالنسبة له، ذلك أنّ رسائله قد أخذت على عاتقها إنقاذ الإيمان وفي مقدّمة ذلك توحيد الله تبارك وتعالى، والذي يعدّ عماد الإيمان وأسّ أركانه.

ويجد الباحث في رسائل النورسي حضوراً لافتاً لقضية التوحيد بمختلف جوانبها، ومناقشات هادفة وبيانات شافية لكل موضوعاتها، بهدف تقديم صورة سليمة وشاملة للتوحيد ولمعرفة الله تعالى، تبنى عليها تطبيقات ومواقف صحيحة في حياة المسلم. وما يعني هذه الدراسة ضمن عنوانها ومحور بحثها هنا، هو ملاحظة كيف أنّ النورسي في رسائله وظّف عقيدة التوحيد ومعرفة الله تعالى بطريقة تخدم الرحمة الإنسانية بما يتناسب مع مفهوم التوحيد ومقاصد معرفة الله تعالى، حيث من المعلوم أنّ أعظم ما يربيّ التوحيد في القلوب معرفة الله تعالى، وهذه المعرفة إن كانت سليمة وصحيحة فإنها تتطلب من العبد أن يقصد بقوله وعمله وجه الله تعالى، بمعنى أن يكون مخلصا لله حينما يقدم على سلوك معين، فيعمل التوحيد على قيادة نيته وضبطها وتوجيهها لتكون خالصة لله وحده، ومن بين ذلك الرحمة الإنسانية، حيث أظهرت رسائل النور تطبيقات عقيدة التوحيد فيما يخص هذه الرحمة من ثلاث جوانب:

الأول: التأكيد على أنّ الرحمة هي من تجليات ربوبية الله تعالى، حيث يقول النورسي " والرحمة التي هي أهم أساس للربوبية"[١] .

الثاني: ضرورة أن يتوجه العبد بنيته حينما يمارس الرحمة في حياته لله تعالى وحده لا يشرك معه في نيته شيئاً، فالرحمة بكل تجلياتها وفروعها وانسياباتها وفي مقدمتها، المحبة والشفقة، لا بد أنْ يجعلها العبد خالصة لله، وفي سبيل الله[٢]، حتى لا يفوته مقصودها.

الثالث: يعمل التوحيد ومعرفة الله تعالى على إعطاء الرحمة والشفقة والمحبة معانيها السامية وأسرارها البعيدة ومشاعرها المستمرة إلى الأبد، حيث يرى النورسي أنه إذا ما نزع التوحيد وأسراره من الرحمة ومظاهرها، بل ومن كل مكونات الإنسان وحياته حتى عقله، فإن ذلك كله سيتحول إلى " مصيبة كبرى تدفع بالإنسان إلى درك الشقاء"[٣]، في حين أن امتزاجها بأسرار التوحيد وبمعرفة الله تعالى يضبطها ويوسع

(١) النورسي، الشعاعات، ص٢٢٩. وينظر له أيضاً: المثنوي العربي، ص٣٩٦.
(٢) ينظر: النورسي، الكلمات، ص٤٠٦.
(٣) النورسي، الشعاعات، ص١٩.

مداها لدرجة أنّه قد يتلذذ بما يشوبها من آلام، وما يعتريها من أشواك[١]، ذلك أنه قد ربط هذه الرحمة وممارساتها وعلاقاتها وتجلياتها بالله تعالى وبرضاه وبالإخلاص له وبالتحمّل في سبيله، يقول النورسي مظهراً تجليات التوحيد باعتباره موجهاً للرحمة والشفقة: " الشفقة والحنان، هي ألطف سجية من سجايا الإنسان وأحلاها، إنْ لم يسعفها سرّ التوحيد تتحوّل إلى ألم الحرقة، وعذاب الفراق، وجرح العطف، فتتحول إلى مصيبة كبرى تدفع بالإنسان إلى درك الشقاء... . ومثلاً: المحبة التي هي ألذ شعور في الإنسان وأطيبه وأسماه، إذا ما أعانها سر التوحيد يجعل الإنسان الصغير واسعاً سعة الكون وعظيماً وكبيراً كبره حتى يجعله سلطاناً محبوباً على المخلوقات كافة"[٢]. فالتوحيد بذلك يضبط الرحمة وآثارها وأبعادها في نفس المسلم ويوجهها إلى مقاصدها الرفيعة، ويحول دون حبسها في إطار اللّذائذ المادية والدنيوية المحدودة.

خامساً: التربية الإيمانية ومظاهر الرحمة الإنسانية عند النورسي.

لا تقف رسائل النور عند مستوى الطرح النظري، ولا تكتفي بمجرد التوجيهات العامة لإيصال أفكارها وتحقيق مضامينها، بل تتجاوز ذلك إلى عين المطلوب، وهو بيان السبيل العملي والدليل التطبيقي إلى تحصيل المراد وقطف الثمار، وهذه قيمة مهمة في رسائل النور جعلت منها برنامجاً عمليا يؤدي دوره بفاعلية في حياة أتباعها خاصّة ومستقبليها عامة في مختلف أرجاء المعمورة وتعدّ "الرأفة والرحمة أهم الخصائل الإسلامية، ولهذا كان (النورسي) يربيّ الناس عامة، وتلاميذه خاصة عليهما، ليكونوا الرحماء بالناس، الداعين إلى الله بهذه الصفات التي أكدها الإسلام مراراً في القرآن والسنة"[٣]. وتتجلى هذه المنهجية في محور هذه الدراسة من خلال ما رصده الباحث من مسلكيات يمكن إدراجها تحت عنوان " التربية الإيمانية ومظاهر الرحمة الإنسانية" لتدلّ على أن "الرحمة" لدى الإنسان المسلم ثمرة، لا بد من بذل خطوات وعمل مجهودات للوصول إليها يانعة ناضجة. ويمكن توضيح جوانب هذه التربية المبنية على الإيمان واللازمة لتحقيق الرحمة في النفس الإنسانية ومواقعة مظاهرها وتجلياتها بالأمور الآتية:

---

(١) النورسي، الكلمات، ٤٠٦ .

(٢) النورسي، الشعاعات، ص١٩ .

(٣) العوضي، النورسي: فكرة ودعوته، ص١٦٢.

- **اعتماد التربية الإيمانية وثوابتها لا التربية الأوروبية ونزغاتها.**

وهذا يشكل في رسائل النور وفي فكر النورسي نقطة ارتكاز أولى لا بدّ من الأخذ بها في كل شؤون التربية وفي مختلف مراحلها ولجميع أهدافها. وإذا ما عملت التربية الإيمانية الأصيلة المنطلقة من القرآن والسنة والقائمة على التوحيد الخالص لله[١] والمعتمدة على مقاصد الآخرة[٢]، ورضوان الله فإنّها ستبنى نفوساً مطمئنة وقلوباً زكية عامرة بالإيمان، تفيض منها الرحمة والشفقة، وذلك لأنّ معطيات التربية القرآنية الإيمانية واسعة وصادقة، تختلف اختلافاً جوهرياً مع معطيات التربية الفلسفية المادية، يقول النورسي: "أما ما تعطيه حكمة الفلسفة وحكمة القرآن من تربية للمجتمع الإنساني فهي: أنّ حكمة الفلسفة ترى "القوة " نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية، وتهدف إلى "المنفعة" في كل شيء، وتتخذ " الصراع" دستوراً للحياة. وتلتزم " بالعنصرية والقومية السلبية" رابطة للجماعات، أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس وإثارة الهوى.... أما حكمة القرآن الكريم، فهي تقبل "الحق" نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، بدلاً من "القوة" وتجعل " رضى الله سبحانه " ونيل الفضائل هو الغاية، بدلاً من المنفعة، وتتخذ دستور "التعاون" أساساً في الحياة، بدلاً من دستور "الصراع"، وتلتزم برابطة "الدين" لربط فئات الجماعات بدلاً من العنصرية، وتجعل غاياتها الحدّ من تجاوز النفس الأمارة، ودفع الروح إلى معالي الأمور"[٣]. إنّ النورسي وهو يقدّم هذه المقارنة والمتضمنة بداهة الدعوة الملحة لاعتماد منهجية القرآن والإيمان في التربية، ليدرك ذلك الواقع الأليم الذي لفّ حياة الناس حينما سيطرت عليه التربية الغربية بكل عناصرها المادية والقاسية، يقول النورسي: "إنّ زماننا هذا لا يشبه الأزمنة الغابرة، فلقد تمكّنت التربية الحديثة "الأروبية" في المجتمع عوضاً عن التربية الإسلامية، طوال نصف قرن من الزمان. إذْ بينما الذي يتزوج ليحصن نفسه من الآثام، وليجعل زوجته صاحبته الأبدية، ومدار سعادته الدنيوية، بدافع من تربية الإسلام تراه يجعل تلك الضعيفة المنكوبة، بتأثير التربية الأروبية، تحت سطوته وتحكمه الدائم، ويحصر حبه لها في عهد شبابها وحده، فتمضي الحياة في عذاب وآلام"[٤] ومن

(١) النورسي، إشارات الإعجاز، ص٢٨.

(٢) جيدل، عمار، حقيقة مقاصد رسائل النور، ص٢٢١.

(٣) النورسي، الكلمات، ص١٤٢-١٤٣ .

(٤) النورسي، الملاحق، ص٣٤١.

هنا تقدّم رسائل النور في سبيل الوصول إلى تربية إيمانية جادة تفيض بالخلق والرحمة والسعادة دعوتها، فتقول: "اجعلوا بيوتكم مدرسة نورية مصغرة، وموضع تلقي العلم والعرفان، كي يتربى الأولاد الذين هم ثمار تطبيق هذه السنة، على الإيمان، فيكونون لكم شفعاء يوم القيامة، وأبناء بررة في هذه الدنيا، وعندها تتقرر هذه السنة الشريفة فيكم حقا"[١]. وعليه فالطريق للوصول إلى رحمة إنسانية صادقة منطبعة في حياتنا، هي أن نعتمد التربية الإيمانية القائمة على القرآن الكريم والسنة النبوية، وأن نحذر من التربية الأروبية القائمة على النظرة المادية القصيرة.

- **التربية الإيمانية ومظاهر الرحمة الإنسانية في الحياة الاجتماعية عند النورسي.**

توجهت رسائل النور في قطاعات كبيرة من خطاباتها إلى المجتمع، بكل ما يحمله من أفكار وسلوك وعلاقات ومكونات وأمراض ونجاحات وعناصر بشرية.وهذه هي طبيعة رسائل النور، وهذه هي علاماتها ومعطياتها، النظر في واقع الناس لاستخراج علله وتقديم ما يداويه وينهض به. وفيما يتعلق بمحور هذه الدراسة فإنّ الباحث يرى أنّ رسائل النور قد أعطت اهتماماً واضحاً لكل ما من شأنه أن يعين على مدّ يد العون للمجتمع بمختلف شرائحه لتتجلى فيه مظاهر الرحمة الإنسانية، وليعيشها أفراده كلهم واقعاً في يومياتهم ومراحل حياتهم. وحتى يتأتى لهم ذلك، لا بد من سبيل الإيمان والتربية عليه، فهو من أعظم ما يؤسس للرحمة المجتمعية بكل مظاهرها من الأخوة والمحبة والمودّة والتآلف، يقول النورسي: " إنّ أسباب المحبة هي الإيمان والإسلام"[٢]، ويقول أيضاً: "إنّ الودّ والمحبة والأخوّة هي من طباع الإسلام وروابطه"[٣]، ومن أجلّ مظاهر الرحمة التي يؤسسها الإيمان إذا ما تربىّ عليه المجتمع، وجود رابطة الأخوة ومشاعر المودّة والمحبة بين أفراد المجتمع المسلم[٤]، " فبفضل هذه الرابطة المقدسة التي تشد الأمة الإسلامية بعضها ببعض، يصبح المسلمون كافة كعشيرة واحدة. فترتبط طوائف الإسلام برباط الأخوة الإسلامية، كما يرتبط أفراد

(١) المرجع السابق، ص٤٠٣.

(٢) النورسي، صيقل الإسلام ،ص٥١٠.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) النورسي، المثنوي العربي، ص١٥٨.

العشيرة الواحدة، ويمد بعضهم بعضاً معنوياً، وإذا اقتضى الأمر فمادياً، وكأن الطوائف الإسلامية تنتظم جميعها كحلقات سلسلة نورانية"[١]، وينظر النورسي بنظرة إيمانية عميقة إلى ما وراء هذا الارتباط الرحيم، وإلى ثمار هذه الألفة الإيمانية الرحمانية، وإذا بها زاخرة بالعطاء وافرة بالثمار، يقول رحمه الله: "اعلم، أنّ سرّ تساند المؤمنين في عباداتهم، ودعواتهم في جماعاتهم سرّ عظيم، وأمر جسيم، له شأن فخيم؛ إذ يصير به كل فرد كالحجر المجصوص في البناء، يستفيد من إخوانه في الإيمان بألوف ألف ألف ما يستفيد من عمل نفسه. فإذا نظمهم سلك الإيمان، يصير كلٌّ لكلٍّ، وللكلّ شفيعاً، وداعياً، ومسترحماً، وراجيا، ومادحا، ومزكيا"[٢].وبذلك تندفع كثير من الأمراض الاجتماعية[٣] التي تتناقض مع الرحمة الإنسانية التي يودعها الإيمان وينميها، فتنطرد من النفوس ومن جيوب المجتمع، القسوة، والعداوة والبغضاء، والأنانية، والتحاسد، والروابط الضّيقة، وغيرها من مناقضات الرحمة الإيمانية.

ويرى النورسي، بأنّه لا سبيل إلى التراحم العائلي[٤]، حيث الرحمة بالصغير، وبكبير السن. وبالمريض[٥]، وبالزوجة، إلا بالتربية على الإيمان حيث بها تفيض الرحمة على جنان الإنسان، فتظهر في سلوكاته تجاه نفسه والآخرين، وبخاصة أولئك المقربين، فكما يقول النورسي: "وإذا كنت تريد رحمة الرحمن الرحيم، فارحم ودائع ذلك الرحمن، وما استودعك في بيتك من أمانات"[٦]؛ والنورسي لا يعطي كل هذا الاهتمام للتراحم العائلي إلا لما كان يلمسه من غياب لها وضعف لحضورها في الأجواء البيتية، فهو يقول: " إنّ أعظم ركيزة في الحياة الاجتماعية هي توقير الصغير للكبير، ورحمة الكبير للصغير، إلا أننا نرى أنّ هذا الأساس قد تصدع كثيراً...، ولكن بفضل الله، فإنّ الرسائل القرآنية أينما حلت قاومت الدمار، وحاولت دون تهدم هذا الأساس الاجتماعي المتين، بل حاولت تعميره"[٧].

---

(١) النورسي، صيقل الإسلام، ص٥١١ .

(٢) النورسي، المثنوي العربي، ص٤٠٧.

(٣) النورسي، المكتوبات، ص٤١٥.

(٤) المرجع السابق، ص٣٣٦، ص٥٤٥.

(٥) النورسي، اللمعات، ص٣٣٠.

(٦) النورسي، المكتوبات،ص٣٣٧.

(٧) النورسي، سيرة ذاتية، ص٣١٤.

أن هذه الرؤية لمظاهر الرحمة وتجلياتها المؤسسة على قاعدة الإيمان، في نطاق الذات والأسرة هي حلقة مهمة من حلقات الحياة الاجتماعية في الأمة المسلمة والتي لا بدّ أن تستضيء جميع حلقاتها بهذا النور الرحماني، يقول النورسي: " ما دامت الصداقة والميل إلى التجمع الأخوي، والجمعية الأخروية هي من أسس الحياة الاجتماعية، وضرورة من ضرورات الفطرة الإنسانية، ومن أهم الروابط وأكثرها ضرورة بدءاً من حياة العائلة والقبيلة، وصولاً إلى حياة الأمة وإلى الحياة الإسلامية والإنسانية، ونقطة استناد وأنس لكل إنسان تجاه ما يلاقيه في الكون من مصاعب لا يستطيع مواجهتها وحده، وللتغلب على جميع العوائق والموانع المادية والمعنوية التي تحاول إعاقته عن القيام بإيفاء واجباته الإسلامية والإنسانية"[١]. وإذا ما أرادت الأمة المسلمة أنْ تحافظ على جوهرة الحياة الاجتماعية بينها، والمتمثلة بانتشار الرحمة والمودة والشفقة فيها، فلا بدّ لها من أنْ تحرص على تربية الأجيال تربية إيمانية قرآنية متكاملة، تعني بتزكية النفس وتطهيرها، وصقل العقل وتنميته، وبناء السلوك وتحسينه، حينها ستكون ظلال الرحمة وارفة وممتدة، ونابضة بالحياة.

ويحسن أن يختم الباحث هذه الدراسة عن أثر الإيمان في إيقاظ الرحمة الإنسانية بدعاء من صاحب الرسائل النورانية التي تفيض بالرحمة، وهو يدعو إلهه الرحمن الرحيم، أن يجود عليه بالرحمة، حيث يقول الإمام النورسي رحمه الله مناجياً ربّه: "اللهم يا رحمن يا رحيم بحقّ " بسم الله الرحمن الرحيم" ارحمنا كما يليق برحيميتك، وفهمّنا أسرار "بسم الله الرحمن الرحيم" كما يليق برحمانيتك، آمين"[٢].

الخاتمة:

بعد هذه الجولة البحثية المركزة في رسائل النور، بهدف الوقوف على مساهمتها في نشر وتعزيز "الرحمة الإنسانية" المبنية على أساس الإيمان، فإنّ الباحث يسجل النتائج المهمة الآتية:

- تشكل الدعوة إلى تحقيق الرحمة في عالم الإنسان مرتكزاً أساسياً في مضمون رسائل النور ومقاصدها.

---

(١) النورسي، الشعاعات، ص١٧٣.

(٢) النورسي، اللمعات، ص١٥٤.

– تتشكل منطلقات الرحمة الإنسانية في رسائل النور من مقاصد القرآن والإيمان والتوحيد والرسالة النبوية، ومن منهجية الرسائل وقدوة صاحبها.

– تعدّ الرحمة الإلهية الأصل في كل الرحمات الظاهرة والمستترة في عالم الإنسان وعوالم الحياة والكائنات والرسالات السماوية، وما هذه الرحمات إلا تجليات للرحمة الإلهية الواسعة.

– يعدّ الإيمان في فكر النورسي القاعدة الأولى لمنطلق الرحمة وتكوّنها واتصاف الإنسان بها، فكما أنّ رسائل النور كانت لإنقاذ الإيمان، فكذلك الإيمان كان لإنقاذ الرحمة.

– تعمل عقيدة الآخرة على توسيع مجال الرحمة، وإعطائها أبعاداً إنسانية وغيبية يتجاوز بها الإنسان المسلم حدود الدنيا الضيقة ومطالبها المختنقة إلى دوائر الجدّ والوفاء والانبساط والرفق.

– تقود معرفة الله تعالى المبنية على أساس الإيمان الصادق والتوحيد الصافي إلى تخليص الرحمة الإنسانية من شوائب الشرك، وتنقية مظاهرها من مطالب الدنيا ومنافعها الزائلة، بحيث يتحقق لدى العبد الإخلاص بها لله تعالى وحده في كل أشكال ممارساتها مع الآخرين.

– تتجاوز رسائل النور المطالب النظرية المجردة إلى البرنامج والتربية العملية اللازمة لتتحقق النفس الإنسانية بالرحمة على أرض الواقع، إذ لا بد من التزكية والتربية الإيمانية القرآنية ليصل العبد إلى حالة تكون الرحمة واقعاً معاشاً وممارساً في حياته الخاصة والعامة، بحيث يلمس الآخرون مظاهر هذه الحرمة منه، ويشهدون له بذلك، ويقتدون به.

وأخيراً يوصى الباحث بعمل دراسات تربوية متعمقة، تعالج ما يمكن أن يطلق عليه "التربية الإيمانية عند النورسي رحمه الله ومظاهرها".

المراجـــع

- جيدل، عمار، حقيقة مقاصد رسائل النور: استمدادها وامتداداتها، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م
- عبد الرحمن، رائد سعيد، الفكر العقدي عند الإمام النورسي (دراسة تحليلية)، دار المسيرة، عمان، ط١، ٢٠٠٦م.
- العوضي، إبراهيم علي، بديع الزمان النورسي: فكرة ودعوته، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، ط١، ١٩٩٧م.
- مـؤتمر عـام ١٩٩٢، سـعيد النورسـي فـي مـؤتمر عـالمي حـول تجديـد الفكـر الإسـلامي، استانبول،١٩٩٢م.
- النورسي، بديع الزمان سعيد، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ترجمة: إحسان قاسم، سوزلر، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.
- النورسي، بديع الزمان سعيد، الكلمات، ترجمة: إحسان قاسم، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.
- النورسي، بديع الزمان سعيد، سيرة ذاتية ، ترجمة: إحسان قاسم، سوزلر، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م .
- النورسـي ، بـديع الزمـان سـعيد، الملاحـق فـي فقـه دعـوة النـور، ترجمـة: إحـسان صـالح، سوزلر،القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م .
- النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات، ترجمة: إحسان قاسم، سوزلر، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.
- النورسي، بديع الزمان سعيد، المثنوي العربي النّوري،تحقيق: إحسان قاسم، سوزلر، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٣م.
- النورسي، بديع الزمان سعيد، صيقل الإسلام (آثار سعيد القديم)، ترجمة: إحسان قاسم، سوزلر، القاهرة، ط٤ ، ٢٠٠٤م.
- النورسي، بديع الزمان سعيد، المكتوبات ، ترجمة: إحسان قاسم، سوزلر، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.
- النورسي، بديع الزمان سعيد، اللمعات، ترجمة: إحسان قاسم، سوزلر، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.